

الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي في النصف الأول من القرن السادس عشر

د. محمد محمد خلف

قسم التاريخ/ كلية الآداب

جامعة الزاوية- ليبيا

توطئة

الأهمية الإستراتيجية لمنطقتي الخليج العربي والبحر الأحمر، مما جعلها محط أنظار وأطماع الدول الاستعمارية، كذلك القيمة الاقتصادية لهذه المناطق باعتبارها معبرا لمختلف أنواع الطرق التجارية والملاحة البحرية، لكونها تربط قارات العالم الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا.

كما تتميز هذه المنطقة منذ القدم بثرواتها الطبيعية حيث توجد مناجم النحاس والقصدير واللؤلؤ، ثم أصبحت من أهم منتجي الذهب الأسود^(١) منذ النصف الأول للقرن الماضي.

ظهر البرتغاليون علي مسرح الأحداث خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر، ومنذ ذلك الحين بدؤوا يناصرون العداء للإسلام والمسلمين في الأندلس والمغرب بعد أن طرد البرتغاليين المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا في القرن الخامس عشر تحول اهتمامهم إلى أفريقيا وبدعم من الكنيسة والملوك الذين تعاقبوا علي الحكم في البرتغال نجح البرتغاليون سياسة الحقد والتعصب الديني ضد المسلمين، فقاموا باحتلال مدينة سبتة Ceuta المغربية في شهر أغسطس من العام ١٤١٥ م^(٢) وعاثوا فيها الفساد والدمار ضد المسلمين.

ويظهر شغف البرتغاليون بالوصول إلى الهند، من خلال تكليف ملك البرتغال لأحد الرحالة ويدعي بيدرو دي كوفيلهام Pedro de covilham، بالسفر إلى بلاد التوابل، حيث سافر إلى القاهرة ومنها إلى البحر الأحمر فالحيط الهندي حتى وصل إلى الهند، وفي أثناء عودته تمكن من زيارة العديد من المرافئ والمدن الساحلية لشرق أفريقيا حتى وصل الحبشة في سنة ١٤٩٠ م، ثم عاد إلى القاهرة ومنها إلى لشبونة^(٣) ونتج عن هذه الزيارة أن أصبح أمام الملك العديد من التفاصيل حول أحوال تلك البلدان ومنتجاتها، الأمر الذي شجع فاسكو دي جاما في عام ١٤٩٧ أن يبحر في أسطول مكون من أربع سفن، حيث استطاع خلال عام ١٤٨٨ الوصول إلى رأس الرجاء الصالح ومنه توجه إلى السواحل الشرقية لإفريقيا، حيث الإمارات العربية الإسلامية مثل - كلوة، مباسا مركز السيادة العربية، وشاهد حياة العرب المزدهرة وثقافتهم المتميزة العالية بما يضاهي أو أكثر ثقافة

(١) كان البرتغاليون يطلقون على تجارة الرقيق الإفريقي (بالذهب الأسود) لما تدره من أموال طائلة

(٢) رتشارد جيبسون، ترجمة صبري محمد حسن - المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٢ ص ٢٨٣

(٣) Johnston, H.H : The opening up of Africa London 1928, p82

البرتغال^(٤)، من شرق القارة وبصحبة دليل بحار عربي يرجح أنه أحمد بن ماجد النجدي وصل فاسكو دا جاما إلى الهند عام ١٤٩٨ حيث أقام في مدينة كلكتا^(٥)، والملفت لأهمية الموضوع فإن ملك البرتغال يعتبر خريطة الوصول إلى الهند من أهم أسرار الدولة، ولهذا حرم علي الجميع حمل الخرائط التي توضح ذلك المسلك، وقامت الحكومة البرتغالية بمصادرة كافة الخرائط الخاصة بالملاحة نحو الهند^(٦).

تزامن وصول البرتغاليين إلى سواحل مليبار (في صيف ١٤٩٨) بضعف الممالك الإسلامية في غرب الهند وفارس، ومصر، ومما أدى إلى السيطرة الكاملة للبرتغاليين علي طول طرق الملاحة البحرية التجارية مع الهند، ومنع التجار العرب والمسلمين من تلك الامتيازات، وقد أخذت السفن البرتغالية تعود إلى لشبونة محملة بالتوابل وغيرها من السلع النادرة والمطلوبة في الأسواق الأوروبية وذات المردود المادي الجيد.

ولما تم للبرتغاليين عن طريق القوة الغاشمة القضاء علي احتكار التجار العرب والمسلمين لتجارة التوابل في المحيط الهندي وما وراءه، عملوا علي فرض نظام احتكار تلك السلعة من جانبهم فأعلنوا أن الاتجار بأنواع السلع أهمها التوابل، احتكار للتاج البرتغالي^(٧)، وأصبح أصحاب السفن العربية أن يحصلوا علي ترخيص يعرف بالبرتغالي cartas (قرطاس)^(٨) من أجل العبور، وهذه التراخيص بمقابل رسوم يدفعها صاحب المركب، والمخالف تصادر السفينة وكافة محتوياتها، خاصة إذا كان التاجر مسلم^(٩).

التصدي المصري للبرتغاليين:

بعد سيطرة البرتغاليين علي الساحل الإفريقي الشرقي حيث الإمارات العربية بالقوة والإرهاب وحرق المنازل والأسواق اتجهوا إلى سواحل الجزيرة العربية فقاموا بمهاجمة مدن المثلث الاستراتيجي، مسقط، هرمز، عدن كذلك بدأت السفن البرتغالية بأعمال القرصنة وذلك بأسر السفن العربية الإسلامية، معلنة بذلك حرب اقتصادية، فبدأت الدوريات البحرية البرتغالية عند مدخل البحر الأحمر، كما قاموا بعدة محاولات ناجحة بإقناع الهند بعدم جدوى المتاجرة من غير البرتغاليين^(١٠) وأصبحت مصر من أكبر الدول المتضررة من ذلك الحصار البحري حيث انعدمت التجارة من خلال البحر الأحمر وتم تحويلها عن طريق رأس الرجاء الصالح.

وقد قامت مصر بالعديد من المحاولات من أجل فك الحصار عليها ومنها أنها ليث طلب الاستغاثة من قبل سلطان كجرات بشمال غرب الهند الذي طلب من سلطان مصر النجدة، وكانت النجدة في الموعد وأرسل

^(٤)Duffy James : Portuguese Arica London 1959. p26

^(٥) د. عبد الكريم رافق والعرب العثمانيين ودمشق ١٩٧٤ ص ١٩٤

^(٦) شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ١٩٧١ ص ١٦٦

^(٧) د. شوقي الجمل ص ١٦٨

^(٨) القرطاس: تطلق على الورق المطوي ويقال إن أصلها عربية

^(٩)Boxes, C.R , the Portuguese Seaborne Empire (1415-1825) penguins 1973 p. 48

^(١٠)Diffe , B.W. and Wininns , G.D, foundation of the Portuguese Empire 1415-1580 1580 University of Minnesota press, 1978 p227

السفن الحربية المصرية بقيادة حسين التركي مع مجموعة من سفن البنادقه نظرا لتوافق المصالح الإستراتيجية الاقتصادية، حيث كانوا يتاجرون مع مصر من خلال مدينة الإسكندرية^(٦).

و تضافرت جهود أسطول كجرات ومصر والبنادقه فاستطاعوا أن يوقعوا هزيمة نكراء بالأسطول البرتغالي في موقعة شول chuol شهر يناير ١٥٠٨م، وكان من نتائج هذه المعركة ذات اثر طيب في نفوس العرب المسلمين من جانب ومن جانب آخر زادت حدة الحقد الصليبي، فقد قام نائب الملك البرتغالي في الهند بأعداد أسطول قوي للانتقام من الأساطيل العربية الإسلامية وتم ذلك في العام التالي حيث أوقع هزيمة بالأسطول المصري والكجراتي في موقعة ديو diu فبراير ١٥٠٩م^(١)، وفيها تم القضاء علي أكبر خطر كان يهدد الملاحة البرتغالية.

وعلي أثر هذا الانتصار الباهر الذي حققه البرتغاليون قام افونسو دي البوقرque albuguerque الذي أصبح واليا في الهند باحتلال كوهه واتخاذها مقرا أداريا من ١٥١٠^(٢)، كما احتل ملاقه عام ١٥١١م وحاول التحكم بالتجارة عبر الخليج العربي باحتلاله جزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربي كذلك محاولاته المتكررة للاستيلاء علي عدن بوابة البحر الأحمر.

أما في مصر، فقد ترتب علي هزيمة ديو أن ازدادت الحالة الاقتصادية سواء بسبب انتقال التجارة من البحر الأحمر إلي رأس الرجاء الصالح، فتأثرت حياة الشعب المصري بشكل خطير فانخفضت مستويات المعيشة، و اشتد الفقر مما أثر علي إمكانيات مصر العسكرية والعلمية، فتعذر بناء أسطول يكون قادرا علي مواجهة خطر البرتغاليين المتفاقم في منطقة البحر الأحمر^(٣).

وتفاقم الوضع حتي أصبح في اخطر مراحله فحس السلطان المصري قا نصوي الغوري بالخطر البرتغالي الداهم من خلال تسللهم القوي إلي موانئ شبه الجزيرة العربية في البحر الأحمر والخليج العربي من اجل التحكم في المنافذ البحرية خاصة منطقة عدن، فاستنجد*سلطان مصر بالسلطان العثماني آنذاك سليمان القانوني، الذي استجاب للطلب المصري علي الفور وذلك بان أمر في يناير ١٥١١م بشحن أربعمئة مدفع وأربعين قنطار من البارود والأخشاب والحديد وكل ما يلزم لبناء السفن في السويس.

وفي سنة ١٥١٢م تم تعيين تركي يدعي (محمد بن عبد الله) ليتولي الإشراف على بناء الأسطول المصري وقيادته، وبعد ثلاثة سنوات تم تكليف عثماني آخر يدعي سليمان ريس لتولي قيادة الأسطول المملوكي المصري^(٤).

(٦).د.شوقي الجمل. مصدر سابق ص ١٦٩

(١).د.جلال يحي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر.المكتب الجامعي الحديث، بدون تاريخ، ص ٨٨

(٢).احتل الأسبان طرابلس الغرب (١٥١٠م) وعاثوا فيها فسادا

(٣).د.شوقي الجمل مصدر سابق ص ١٧٠-١٧١

(٤)Tnakik,h," The Socio-Political effects of diffusion of fire – arms in the middle middle east ",Technology and society in the Middle East Oxford, U.P. 1975. P 203

كانت تلك الفترة محفوظة بالمخاطر علي الإسلام والمسلمين فقد بدء التخطيط البرتغالي للاستيلاء علي عدن مفتاح البحر الأحمر، تم جدة والأماكن المقدسة في الحجاز والتحالف من نجاشي الحبشة ضد المسلمين.

كان هدف البرتغاليين هو احتلال عدن بأي ثمن لعدة أسباب منها وأهمها وقف التجارة مع كجرات ومليبار، ولهذا قام البرتغاليون بالهجوم الفاشل علي عدن سنة ١٥١٣م، وسلمت منهم بسالة المقاومة وحصانة أسوارها، وذكرت بعض المصادر أن البوقرق كان ينوي من دخوله للبحر الأحمر هو التوجه للمدينة المنورة وأخذ رفاه النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) ونقله إلي البرتغال.؟!.

إن فشل البرتغاليين في هذه المحاولة (١٥١٣م) في دخول البحر الأحمر أو إغلاق مدخله في وجه التجارة العربية كان احد العوامل التي أضعفت الإمبراطورية البرتغالية في آسيا^(١).

كانت نجاحات البرتغاليين، في النفوذ والسيطرة علي الخليج العربي أكثر من في البحر الأحمر، فقد احتلوا هرمز عند مدخل الخليج العربي في ١٥١٥م واستمروا فيها حتي ١٦٢٢م عندها طردهم عباس الأول^(٢).

في عام ١٥١٦م أبحر أسطول مصري قوي نحو كجرات بقيادة القبطان سليمان ريس برفقة قائد معركتي شوال وديو، لمواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان المصري أمر قائد الأسطول بتغيير مساره وذلك بالتوجه إلي عدن وتأديب أميرها (مرجان الظاهري) الذي صمد ضد ضربات الأسطول بفعل التحصينات القوية لسور عدن، بينما استمر القائد حسين بمهاجمة اليمن والسيطرة

علي مواقع هناك فأصبح بذلك للمماليك ومن بعدهم الأتراك موطأ قدم في تلك المنطقة.

نتيجة للخلافات التي حصلت بين قادت الأسطول المصري والتي وصلت إلى حد التمرد حيث أن القائد العثماني حسين تصرف في اليمن دون علم السلطان المصري أو قائد لأسطول، وقد استغل البرتغاليون تلك الخلافات وأرادوا أن يحتلوا المدينة إلا أن الحامية العثمانية كانت تملك مدفعية قوية أرغمت الأعداء على الرحيل والخروج من البحر الأحمر^(٣)

ترتب على هزيمة المصريين في معركة ديو Diu أن ظهرت قوة إسلامية جديدة على الساحة ونعني بذلك قوة العثمانيين، والجدير بالملاحظة أن العثمانيين كانوا آنذاك في أوجه العظمة حيث كان لديهم وجود في البلقان واسيا الصغرى.

وكان العائق الوحيد في المنطقة آنذاك أمام العثمانيين هم الصوفيين في إيران الذين كانوا يحاولون زعامة المسلمين العرب وأراد العثمانيون أن تكون لهم الكلمة في الساحة الإسلامية.

واكتشف العثمانيون أن دولة المماليك في مصر والشام أضعف ما تكون لكي تقاوم الغزو الصليبي، ولهذا كان من واجب الدولة العثمانية القوية أن تمل الفراغ العسكري للدفاع عن الولايات الإسلامية، وجعلها تحت راية واحدة، وإن الأمر أصبح محتوما أن تقوم السلطات العثمانية بقيادة المنطقة.

(١)Diffie.p267

(٢)Smith, V.A. THE Oxford History of India oxford.U.P 1983. P.529

(٣)Diffie.p.274-5

فاحتل السلطان سليم بلاد الشام عام ١٥١٦م التابعة للمماليك في مصر بدعوة تحالف المماليك مع الصوفيين في إيران ضد الدولة العثمانية تم احتلوا مصر ١٥١٧م.

وبدخول العثمانيين مصر انتهى عصر المماليك وأصبحت السيادة للسلطان العثماني الذي يقع عليه كاهل التصدي للغزاة البرتغاليين وحماية الأراضي المقدسة والمنافذ والبحار الإسلامية حتى الهند.

وقد بدأ العثمانيون باتحاد التدابير اللازمة لطرد البرتغاليين من البحر الأحمر، فجهز سليمان ريس^(١) أسطولا قويا وشق طريقه في البحر الأحمر حيث استولي على سواكن ١٥٢٦م، وحاول الاستيلاء على عدن، واصحاب من مصلحة الدولة العثمانية المحافظة علي البحر الأحمر ضد أي غزو، فقد زار الصدر الأعظم القاهرة وأشرف على بناء الأسطول في السويس الذي أصبح جاهز للعمل في ثلاثينيات القرن السادس عشر.

وعلى اثر استيلاء العثمانيون علي العراق أصبح بمقدورهم تطبيق البرتغاليين من خلال جبهتين البحر الأحمر والخليج العربي، في سنة ١٥٣٧م استنجد سلطان كجرات بالعثمانيين لإيقاف غطرسة وقرصنة البرتغاليين المتواصلة علي أراضيه وسفنه، واستجابة لتلك الاستغاثة أمر السلطان العثماني سليمان القانوني نائبه في مصر سليمان باشا بقيادة حملة لنجدة سلطان كجرات، فخرج الأسطول العثماني في يونيو ١٥٣٨ وخلال مروره باليمن استولي علي المناطق الساحلية مستغلا الخلافات المحلية وأسس قواعد بحرية متقدمة لحماية البحر الأحمر من هجمات البرتغاليين في المستقبل، ثم استولي علي عدن، بعد أن غدر بأميرها مرجان الظافري وقتله ونصب واليا عثمانيا في عدن.

وفي أوائل أكتوبر ١٥٣٨ وصل الأسطول العثماني قبالة سواحل ديو، وشرع في محاصرة الميناء، وقصف البرتغاليين بالمدافع، ثم انسحب الأسطول العثماني فجأة في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر وذكرت أسباب عدة منها أن سلطان كجرات كان قد أعدم من قبل البرتغاليين قبل وصول العثمانيين، وان خليفته رفض تزويد الأسطول العثماني بالتموين اللازم، وخشي أن يكون مصيره مثل مصير أمير عدن^(٢).

وعلى إثر ذلك الانسحاب العثماني أمر نائب الملك البرتغالي في الهند بضرورة ملاحقة الأسطول العثماني من خلال تجهيز أسطول قوي مكون من أكثر من سبعين قطعة بحرية وذلك خلال عام ١٥٤١ م من اجل تدمير الأسطول العثماني، واستطاع البرتغاليون التوغل إلى السويس محاولين التسلل للمرافي وحرق السفن من خلال عمليات كوماندوس، إلا إن تلك العمليات باءت بالفشل^(٣).

وقد حاول البرتغاليون طرد العثمانيين من عدن أكثر من مرة وكان آخرها عام ١٥٤٧ م وذلك من خلال مساعدة الشيخ علي بن سليمان الطولقي الذي طرد الحامية العثمانية، وقد استعاد العثمانيون عدن قبل وصول الإمدادات البرتغالية لدعم الطولقي^(٤)

(١)Tnakik.p.203

(٢)Holt , P.M Egypt and Fertile Crescent London 1966 P.52

(٣)Diffie and Winins p.290

(٤) شهاب حسن صالح، فن الملاحة عند العرب، بيروت. ١٩٨٢ ص٤٨

التواجد العثماني في عدن عام ١٥٣٨ م وسيطرتهم على بوابة البحر الأحمر أدرك العثمانيون الأهمية الإستراتيجية لتلك المنطقة في السيطرة على البحر الأحمر والمناطق القريبة، وبذلك استطاع العثمانيون إبعاد الخطر البرتغالي ومخططاتهم تجاه منطقة البحر الأحمر والسويس. ومنذ ذلك الحين أصبح الأسطول العثماني قوة في البحر الأحمر لا يستهان بها في منتصف القرن السادس عشر عندما أسندت قيادته إلى أحد أعظم قادة البحرية العثمانية آنذاك القبطان ييري رايس، حيث تم تعيينه قائدا اعلي لأسطول المحيط الهندي في عام ١٥٤٧م.

وأمام مظاهر هذه القوة العثمانية الضاربة بدأت مظاهر القلق علي البرتغاليين فبدؤوا يبحثون عن حليف قوي في المنطقة، فوجدوا ضالهم في نجاشي الحبشة في تكوين حلف صليبي مقدس ضد المسلمين، ففي عام ١٥٤١م انزل البرتغاليون قوة قوامها أربعمئة بحار بقيادة كريستوف داجاما لنصرة ملك الحبشة في حربه مع احمد جران احد أمراء الولايات العربية في شرق القارة الإفريقية (الصومال) حيث قام الوالي العثماني في اليمن (ازدمير باشا) بمده ببعض المدافع ومجموعة من حملة البنادقه قوامها ألف رجل مما مكنه من إيقاع الهزيمة بقوات ملك الحبشة وحلفائه البرتغاليين^(١)، وكان لهذا النصر أثره في تنبيه العثمانيين إلى ضرورة أضعاف الحبشة ومعاكبة ملكها حليف البرتغاليين، وإن احتلال الساحل الإفريقي للبحر الأحمر قرب باب المندب سيكون من شأنها تعزيز حماية البحر الأحمر من هجمات القراصنة البرتغاليين، ولهذا كلف السلطان سليمان باشا سلطان مصر والي اليمن ازدمير باشا بإعداد حملة تخرج من مصر إلى سواحل البحر الأحمر مارا بسواكن واستولي علي مصوع ١٥٥٧ م، ثم طرد البرتغاليين من زيلج حتى لا يكون هناك تحالف برتغالي حبشي، وبعد سنتين توفي ازدمير باشا محلفا ولاية جديدة تحت الحكم العثماني عرفت باسم بلاد (الحبش) واتخذ الوالي الجديد مدينة مصوع مقرا له^(٢) وخلاصة القول بفضل قوة العثمانيين البحرية في البحر الأحمر واحتلالهم لعدن ١٥٣٨ م آمنت منطقة البحر الأحمر إخطار ومخططات القراصنة المجرمين البرتغاليين والتي تمثلت: -

- أ- تهديدهم للاماكن الإسلامية المقدسة (مكة المكرمة) المدينة المنورة، رفاه النبي صل الله عليه وسلم.
- ب- جهودهم الحثيثة من أجل خلق تحالف مع الأحباش المسيحيين ضد الإسلام والمسلمين.
- ج - العمل على القرصنة في البحار العربية والمحيط الهندي ضد السفن الإسلامية وحرمان المسلمين من أهم مورد اقتصادي آنذاك، ولاحظت مدي تأثير ذلك علي مصر ! فبفضل الأسطول العثماني الذي تم بقاءه في السويس أصبح بمقدور المسلمين مقارعة القراصنة
- البرتغاليين في البحر الأحمر وما وراءه، وقد تطلب ذلك أموالا طائلة آخذين في الاعتبار أن كافة الأخشاب ولوازم بناء الأسطول تستجلب من تركيا برا، وهذا كلف الخزانة العثمانية الكثير، لكن ما نتج عن ذلك كان كفيلا بأن يتم تعويض ذلك خلال منتصف القرن السادس عشر، حينما أصبح الأعداء البرتغاليون في حالة لم يكونوا فيها قادرين علي مواجهة الأسطول الإسلامي في المحيط الهندي وانعكس ذلك علي إعادة

(١)Diffie, p.356

(٢) Holt . P52

التجارة الدولية إلى البحر الأحمر ومصر التي انتعشت من جديد بفضل توابل الشرق ومنتجاته عبر البحر الأحمر ومصر، ففي عام ١٦٥٤ م اشترى تجار البندقية - حلفاء مصر - وحدهم ستة آلاف قطار من التوابل من أسواق الإسكندرية، مما اثر في أسواق لشبونة، وكذلك في سنة ١٥٦٤م وصلت إلى الإسكندرية كميات من التوابل الآسيوية عبر البحر الأحمر كميات تفوق ما كان يصل إلى لشبونة عن طريق رأس الرجاء الصالح^(٣).

البرتغاليون والخليج العربي:

بعد الاستيلاء علي جزيرة سوقطرى سنة ١٥٠٧م، توجه البوقرق علي رأس سبعة سفن و ٥٠٠ رجل بالاستيلاء علي جزيرة هرمز التي تتحكم في مدخل الخليج وفي طريقه إليها احرق مجموعة من مراكب المسلمين. تم اتجه إلى قلعات وهدد أهلها ولم يتركها إلا بعد أن قبلوا حمايته. أما القرى فإن أهلها رفضوا مطالبه فنهبت مدينتهم واحترق. تم وصل إلى مسقط وقصفها بالمدفعية واعمل فيها يد النهب والتخريب، بعد أن تلقى الإمام محمد بن إسماعيل تعزيزات من ملك هرمز الذي كان يتبعه ساحل عمان. وفي مسقط ارتكب المغيرون البرتغاليون فضائع يندى لها الجبين من قتل بالجملة والتمثيل بالأسري وبعد الاستيلاء علي مسقط، توجه البوقرق صوب صحار وخور فكان، واستولي عليهما^(١). تم وصل إلى هرمز واستولي عليها في أكتوبر عام ١٥٠٧م، وبدأ في تشييد قلعة بإزاء المدينة، إلا أن تمردا في صفوف رجاله اضطره بالانسحاب إلى ساحل الهند في العام التالي^(٢) عاد البوقرق ثانية بعد سبع سنوات، وكان احتلالها هذه المرة نهائيا- بعد أن علم وزير سلطان هرمز- ريس حامد - كان علي اتصال ومداخلة بالشاه إسماعيل الصفوي.

ظهر البوقرق أمام هرمز بغتة في أواخر شهر مارس ١٥١٥، علي رأس أسطول يضم سبعة وعشرين سفينة وثلاثة آلاف رجل. فدبر اغتيال الوزير واستسلم السلطان لشروطه، فأخذ البوقرق في تشييد قلعة كبرى في الميناء، تعهد السلطان بدفع تكاليف تشييدها. أما الشاه إسماعيل الصفوي فكان منشغلا في صراعه مع العثمانيين بعد هزيمته الكبرى علي يد السلطان سليم الأول، في معركة تشالديران ١٥١٤م، فلم يستطيع أن يفعل شيئا إزاء احتلال البرتغاليين لهرمز عداء الاحتجاج علي انتهاكهم حرمة أرضيه^(٣) بعد احتلال مسقط وهرمز أصبح البرتغاليون يسيطرون علي مدخل الخليج كما احتلوا نقاطا مهمة أخرى في اعلي الخليج، كما فقد وصل البرتغاليون إلى البحرين إلا أنهم لم يستولوا عليها إلا بعد ذلك بوضع سنوات، بالتحالف مع ملك هرمز، وأقاموا معقلا كبيرا لهم علي الساحل في قلعة العجاج، علي بعد نحو أربعة أميال غرب المنامة.

سنة ١٦٠٢م، استولي الفرس في عهد الشاه عباس الأول علي البحرين فقصوا علي ما كان من سيطره ضعيفة لسلطان هرمز الذي كان مجرد تابع للبرتغاليين.

ولما ثار أهل مسقط عام ١٥٢٦، بسبب ظلم حاكم هرمز البرتغالي قمعت ثورتهم بمنتهى الوحشية. وفي ١٦٥٠/١/٢٣م، ثار العثمانيين من البرتغاليين فتم طردهم من مسقط علي يد الإمام سلطان بن يوسف اليعربي، الذي خلف عام ١٦٤٦ م ، عمه الذي طرد البرتغاليين من ساحل عمان.

(٣)Parry. V.J. The Reign of sulaiman the magnificent in a History of the Ottoman empire to 1730 Cambridge p.100

(١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٩٦٨، ص ٢٦٣

(٢)India and the Indian Ocean 1500-1800. Oxford U press, 1987 p 29

(٣)Diffie, pp 238,269

كان هدف البرتغاليين من القواعد التي أقاموها هدفا اقتصاديا محضاً، ولم يولوا كبير اهتمامه بالسكان المحليين، سوى استغلالهم عمالاً، فادا التزم هؤلاء السكنية والهدوء تركوا وشئهم، إلا قمعت ثورتهم واضطهدوا. وظل حكم البرتغاليين استمر الرخاء في هرمز، إلا أن كونه في أيدي أجنبية كان مصدر سخط شديد من قبل ملوك إيران، الذين كان يتبعهم ملوك هرمز قبل قدوم البرتغاليين، و حلت أول هزيمة كبرى بالبرتغاليين عام ١٦٢٢م، حينما طردهم الشاه عباس الأول من هرمز (بمساعدة شركة الهند الشرقية الانجليزية) تم استولي علي خورفكان وصحار^(١).

التواجد العثماني في منطقة الخليج العربي:

بعد ثلاثة شهور من إبرام الصلح مع النمسة، قاد الصدر الأعظم في أكتوبر عام ١٥٣٣م، حملة ضد الصوفيين واستولي علي شمال ووسط العراق في نوفمبر-ديسمبر عام ١٥٣٣م، وفي عام ١٥٣٨م، سيطرة العثمانيون علي جنوب العراق - بما في ذلك ميناء البصرة-فمدو رقعة أراضيهم إلي الخليج. وفي البصرة، كان يحكم أمير عربي هو مرشد بن مغاس، الذي أعلن عن خضوعه للعثمانيين سنة ١٥٣٩م، فأبقاه السلطان سليمان القانوني في منصبه ممثلاً له. تم صدر في ١٥٤٧م التعليمات لوالي بغداد العثماني اياس باشا بقيادة حملة ضد أمير البصرة فأصبحت البصرة والأراضي المجاورة لها ولاية عثمانية^(٢) ولما فرض العثمانيون سيطرتهم علي البصرة انشئوا فيها دار صناعة وبنو أسطولاً صغيراً.

إن الاستيلاء علي البصرة أوصل العثمانيين إلي رأس الخليج العربي حيث واجهوا كما كان الحال في البحر الأحمر والمحيط الهندي قوة البرتغال البحرية. إن ولايات الموصل وبغداد والبصرة والإسعاء كانت أساس ثغرا للإمبراطورية العثمانية ضد الصوفيين والبرتغاليين^(٣).

وكرد فعل وازدياد قوة العثمانيين في المنطقة، أخذ الزعماء العرب في أطراف الخليج يتعاونون مع البرتغاليين، الذين كانوا قد شيدوا قلاعاً واحتفظوا بحاميات في مسقط وهرمز. ونزلوا إلي البر في القطيف للحيلولة دون نمو البصرة لتصبح كالسويس - قاعدة للأسطول العثماني^(٤).

ولعل موقف الزعماء المحليين العرب هذا كان بسبب خوفهم من أن يحل بهم ما كان قد حل بأميري عدن والبصرة علي أيدي العثمانيين الذين غدروا بهما واستولوا على إمارتهما.

الصراع العثماني البرتغالي في الخليج:

في عام ١٥٤٧ عين بيبري ريس قائدا اعلي للأسطول المحيط الهندي، علاوة على منصبه كقائد لأسطول مصر. وفي عام ١٥٥١ م، أبحر بيبري ريس من السويس علي رأس أسطول كبير قاصدا منطقة الخليج فاستولي علي مسقط من أيدي البرتغاليين بعد حصارا داما شهرا، تم هاجم هرمز، وقصد البصرة، ومنها عاد إلي مصر تاركا معظم سفن الأسطول في شط العرب، وبعد ذلك بستين استعاد البرتغاليون مواقعهم بعد أن اعترضوا سبيل أسطول عثماني قوامه ١٥ سفينة - علي رأسه مراد باشا - في معركة مدمرة شمالي مسقط^(٥)

(١)Phillips, pp 24,25

(٢)Holt ,p56

(٣)The Encyclopedia of Islam. vol. 1.London.p942

(٤)Shaw, S.J. History of the Ottoman Empire Vol. 1 Cambridge U.P 1978 p 107

(٥)Phillips, w., Oman: A History. Beirut 1971 p. 40

وبعد وفاة بيرري ريس سنة ١٥٥٣ م، خلفه سيدي علي ريس قائدا لأسطول البحر الأحمر وعهد إليه كذلك بإعادة سلطة العثمانيين بالخليج، فقام بإعادة بناء ميناء البصرة وأسطولها، وفي عام ١٥٥٤ م غادر البصرة، وفقد بعض سفن في عمليات بحرية ضد البرتغاليين قرب هرمز ١٥٤٥ م، وبعد أن تكبد خسائر كبيرة في السفن بسبب عاصفة قرب ساحل مكران، وصل إلى ديو علي ساحل الهند، ثم عاد إلى وطنه بطريق البر عام ١٥٥٧ م، وبقي الخليج مغلقا في وجه السفن العثمانية بعد ذلك.

أن الحملات التي جهزها العثمانيون في المحيط الهندي، كانت تعتمد أساسا على موارد مصر والعراق. وقد أصبح هذا الوضع واضحا ما بين ١٥٥٠ - ١٥٧٠ م، حينما تجدد الصراع مع البرتغاليين للسيطرة على المحيط الهندي، بداية حملة جديدة حاول العثمانيون عام ١٥٥١ م إبعاد البرتغاليين عن الخليج، إلا أنهم عجزوا عن تحقيق هذا الهدف بسبب تفوق قوات البرتغاليين البحرية، وانحياز بعض العرب المحليين إلى جانبهم وكان للمدفعية دور رئيسي في كل هذه المواجهات مع البرتغاليين وهي الاشتباكات التي سماها سيدي علي ريس " معارك المدفعية والبنادق اليدوية" (١)

ففي عام ١٥٨٠ م، بارحت سفن عثمانية بقيادة علي بيك اليمن للهجوم على مسقط. وفي عام ١٥٨٤ م سار علي بيك جنوبا بمحاذاة ساحل أفريقيا الشرقي ووصل إلى ميلادي، وتكررت الغارة عام ١٥٨٩ م فوصل إلى مماسة، إلا أن سفنه القليلة العدد هزمت هلي يد أسطول برتغالي كبير قدم من كوهه علي ساحل الهند الغربي. كان العثمانيون يأملون في أن يعزز احتلالهم عدن مركزهم في الخليج، إلا أن قواتهم البحرية كانت ضعيفة، وكتب النصر للبرتغاليين في معظم الاشتباكات التي جرت في مياه الخليج.

ومع ذلك، فإن العثمانيين كسبوا الحرب الاقتصادية في منطقة الخليج، فمع أنهم لم يتدخلوا كثيرا في تجارة البرتغال المحزمية بحري فارس وبالخيول العربية المصدرة من هرمز وساحل عمان إلى الهند، فإن البرتغاليين كذلك لم يستطيعوا عرقلة تجارة المسلمين في المنطقة، وهي التجارة التي انتعشت بعد أحياء الطريق التجارية القديمة بين البصرة وحلب. ومع ازدياد مقاومة المسلمين، أخذت في الانتعاش التجارة القديمة عبر البحر الأحمر والخليج.

فازدهرت التجارة عبر مصر، كما أن حلب - وإليها كانت تصل القوافل من العراق وفارس - ازدهرت هي الأخرى بعد عام ١٥٥٠ م، وأصبحت من أعظم أسواق المشرق لتجارة التوابل والحرير، وكان عليها إقبال كبير. على أن انتعاش تجارة العبور لم يقدر لها أن تدوم طويلا. فان ظهور دول بحرية أوروبية أقوى من البرتغال بكثير - هولندا وإنجلترا - في مياه المحيط الهندي منذ أواخر القرن السادس عشر كان من شأنه أن يضمن تفوق الطريق البحرية حول القارة الإفريقية على الطريق القديمة عبر بلدان المشرق (٢).

(١) Tnalcik, p.205

(٢) Parry, pp. 100,123